الفكر واللغة

للأستاذ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور بك
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

اللغة ابتكار من أبدع ما وصل إليه الإنسان، وأداة تمتاز بكثير من الإتقان والإحكام، ووسيلة ناجحة من وسائل الترابط والتفاهم بين الأفراد والجماعات . وهى ظاهرة متشعبة النواحى والأطراف قد أثارت ألواناً شتى من البحث والدراسة . وإذا تركنا جانباً ما يتصل بها من دراسات أدبية ونحوية وصرفية ، فإنها وجهت إلى بحوث أخرى متعددة

عرض لها علماء وظائف الأعضاء ليعرفوا كيف تؤدى ، ويبينوا أعضاء النطق والصوت، ويوسعوا فى اختصار الجهاز العضوى للغة . وعالجها علماء النفس لما رأوا من صلة وثيقة بين العمل الذهنى والدلالات اللغوية . وعنى بها علماء الاجتماع مبينين نشأتها وتطورها ، ومقارنين بين اللغات البدائية واللغات المتحضرة ، ومعلنين أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل ومؤثرات ، ونظر إلى اللغة أخيراً على أنها جزء من التاريخ يسجل الماضى ، ويحكى الأحداث، بل هى نفسها قطعة تاريخية متحركة يجب درسها وبحث معالمها

ودون أن نعرض لهذه النواحى المتعددة ، نود فقط أن نوجه النظر إلى ما بين الفكر واللغة من صلة . وفى هذه الصلة ما يلقى كثيراً من الضوء على مناقشاتنا وعملنا المجمعى ، وخاصة فيما يتصل بالمصطلحات ووضعها ، والمترادفات وقيمتها ، وألفاظ الحضارة وتجددها ، والتعبيرات المبتكرة ومدى الحاجة إليها

محاضرة ألقيت فى مؤتمر المجمع بجلسة من جلسات يناير سنة ١٩٥٢

أحمد حسن الزيات

ولا شك فى أن المعنى وثيق الصلة باللفظ الذى يؤديه ، لأنه ثوبه ووعاؤه ، وبدونه يضل ويصبح كأن لا وجود له . فلا يمكن تبادله بين الأفراد ، بل ولا استحضاره فى ذهن الفرد الواحد . وقديماً قالوا : التفكير حديث نفسى . ومن هنا ارتبط التفكير باللغة ، وبالأخص فى صوره السامية كالحكم والاستدلال

° ° °

وإذا تأملنا الفكر واللغة وجدنا أن كل واحد منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به . فاللغة فى نشأتها تخضع إلى مدى بعيد للنشاط الذهنى والميول والاتجاهات النفسية . وما لغة الأطفال إلا حركات وإشارات تبعث عليها غرائز واستعدادات ، يدفع الطفل يده إلى الأمام مشيراً إلى التقدم إلى الخلف ، أو مشيراً إلى التراجع، وكل تلك حركات تعبر عن انفعالات داخلية. ولاتلبث هذه الحركات أن تتحول إلى إشارات ، والإشارات إلى أصوات، والأصوات إلى ألفاظ وجمل . وبهذا تنشأ اللغة فى تدرجها الطبيعى، وتقوم على أساس سيكلوجى

لم يؤثر الفكر فى نشأة اللغة فحسب ، بل ساهم أيضاً بنصيب ملحوظ فى حفظها والإبقاء عليها. ذلك لأن تعلم اللغة بين أبناء الجيل الواحد يعتمد على السماع والحفظ، وتبادلها بين الأجيال المتلاحقة ~~لا سبيل إليه إلا بالنقل~~ والرواية . ودعامة ذلك كله الذاكرة والحافظة ، ولولا الذاكرة ما كانت لغة كما يقولون . وقد يكون فى الكتابة ما يرفع عن كاهلنا اليوم بعض عبء الاحتفاظ باللغة ، ولكن كم من جماعات عرفت لها لغات تداولتها وتوارثتها دون أن يكون للكتابة فيها أثر ملحوظ، وإنما عولت على الذاكرة وحدها . وكلنا يعلم أن قوة التذكر أوضح فى حياة البداوة منها فى حياة الحضر ، لأن المتحضرين فى اعتمادهم على القلم والقرطاس يضعفون الذاكرة ويقللون استخدامها . على أن الكتابة نفسها لايمكن أن تتعلم وتكتسب إلا بقسط ضرورى من الحفظ والتذكر .

وللحياة الفكرية أثر آخر فى نهضة اللغة ونموها ، إذ لولا تجدد المعانى وتباينها ما تجددت الألفاظ ، ولا تنوعت التراكيب . ولولا عمق الفكرة وتجددها ما كانت دقة اللفظ وتخيره . وكم

obeikandl.com

يشعر المتكلم أو الكاتب أن اللفظ أو التعبير الذى استعمله لا يؤدى تماماً المعنى الذى يريده، فيحاول البحث عن غيره ليكون أكثر ملاءمة . وثروة اللغات تتفاوت فيما بينها تبعاً لنشاط الحياة الفكرية وتقدم العلوم والفنون . ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن عصر ازدهار اليونانية قد اقترن بتلك النهضة الفلسفية والفنية التى عرفها أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وقد لوحظ أيضاً أن أسماء الذوات تغلب أسماء المعانى فى اللغات البدائية ، لأن البدائيين لا يلجئون كثيراً إلى التعميم والتجريد . وتسام فكرة الزمن بنصيب أوضح فى لغة المتحضرين منها فى لغة الشعوب الهمجية . وتبادل العلوم والفنون بين الأمم لا يقتصر على تبادل الأفكار، بل يصاحبه أيضاً تبادل بعض الألفاظ والأساليب الدالة عليها ، وكثيراً ما كشفت هذه عن أصل تلك

وللغة بدورها أثر قوى فى التفكير ، فهى إلى مدى بعيد مادته ودعامته ؛ ذلك لأن الدال والمدلول متلازمان ، وقل أن يستحضر أحدهما فى الذهن بدون الآخر . وقد سبق لأرسطو أن قال تلك الجملة المشهورة التى قدر لها أن تحيا مع الزمن ، وهى : ليس ثمة تفكير بدون صور ذهنية . وفى مقدمة هذه الصور تجىء طبعاً الرموز اللغوية . ولم يحاول أحد نقض هذه القضية إلا فى القرن التاسع عشر ، يوم أن جاءت مدرسة فورتسبورج ، وذهبت إلى أن هناك ضرباً من التفكير مجرداً من تلك الصور الذهنية ، كتفكير الأطفال الذى تملية طائفة من الميول والغرائز ، أو كتلك اللمحات والخواطر التى تمر بالذهن عابرة وكأنها معنى مجرد من كل كساء

ودون أن نقف طويلا إزاء هذين الرأيين المتقابلين، نود أن نلاحظ فقط أن الحدس ليس إلا ضرباً من التفكير . وهناك ضروب أخرى ذات حلقات لا يمكن ربط بعضها ببعض إلا بواسطة الرموز اللغوية

على أن الحدس نفسه قد يستصحب لفظاً أو ألفاظاً ، ولقد قالوا إن المرء يفكر فى كلامه قبل أن يتكلم عن تفكيره

إن الكلام فى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالتفكير السامى أو التفكير المنطقى الذى هو سلسلة من الحكم والاستدلال لا غنى له عن اللفظ والعبارة

والألفاظ فوق هذا هى الوسيلة لتحديد الأفكار وتمييز بعضها من بعض . وإذا كانت المدلولات متنوعة ، فإن اللازم أن تتنوع الدوال تبعاً لها . ولا شك فى أن الأفكار متفاوتة معنى ومدلولا، عموماً وخصوصاً ، جنساً ونوعاً . ولولا الألفاظ ما أمكن تقسيمها وتصنيفها ، ولا تحليلها وتركيبها . وآية التفكير الدقيق تعبير دقيق يؤديه . والعبارة المحكمة تؤدى عادة إلى تفكير محكم ، وبذا تنوعت العلوم ، وتحددت موضوعاتها ، وامتاز كل منها بمصطلحاته . وما العلم إلا لغة أحكم وضعها

واللغة أخيراً سبيل تداول الأفكار وتبادلها ، فهى التى تنقلها من فرد إلى فرد ، ومن جماعة إلى جماعة ، وإلا بقيت وقفاً على أصحابها ومحبوسة فى أذهانهم . وإذا كان التفكير الفردى يخضع للمجتمع ويتأثر به، فإن للغة دخلا كبيراً فى هذا الخضوع والتأثير. ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى وتيسير تبادلها ، وفضل لغة على أخرى يرجع فى قسط كبير إلى اتساع تداولها وكثرة المتخاطبين بها

* * *

فى وسعنا أن نقرر إذن أنه إذا كانت اللغة ثمرة للتفكير، فإنها هى أيضاً شرط أساسى لوجوده وتحققه على وجه كامل . هذه هى صلة الفكر باللغة ، وهى فيما يبدو صلة تفاعل وتلازم ، وقد ترتبت عليها آثار عدة ، يعنينا أن نشير إلى اثنين منها فقط . أولها أنه يمكن أن تدرس الحياة العقلية فى ضوء الحياة اللغوية . فمثلا ضعف النطق أو بطؤه يؤذن بضعف ذهنى . والأطفال لا يعبرون عن أحكامهم عادة بجملة ، وإنما يكتفون بكلمة أو بعض كلمة . ومن هنا نشأ علم النفس اللغوى الذى يرمى إلى تفسير بعض الظواهر النفسية فى ضوء الدراسات اللغوية . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حاوله « دى شوسير » بالنسبة للغة الكبار ، و « بيابجيه » بالنسبة للغة الأطفال ، و « ليفى بريل » بالنسبة للجماعات البدائية . وإذا كانت الدراسات السيكلوجية قد أفادت كثيراً فى الخمسين سنة الأخيرة من تقدم البيولوجيا والفسيولوجيا والباثولوجيا ، فإنها استمدت أيضاً فى هذه الفترة مادة لا بأس بها من الدراسات اللغوية

وفى تاريخ الأدب ظواهر لها دلالتها السيكلوجية ، فيلاحظ أن ازدهار الآداب يقترن دائماً بازدهار العلم والحياة العقلية ، وأنه حين يعتدى على الحرية الفكرية ويعم الظلم والطغيان ينتشر

الغموض والرمز فى الألفاظ والأساليب . ولتلك الحرية الفكرية التى نعم بها الأثينيون القدامى شأن فى وضوح لغتهم وصفائها . وإذا كانت المترادفات تعد ثروة لغوية فى بعض العصور ، فإنها فى عصور أخرى تعتبر سرفاً لا محل له ولا داعى إليه

ومن جهة أخرى شغلت علاقة الفكر باللغة المناطقة منذ أن وضع علم المنطق إلى اليوم . ونحن نعرف أن منطق أرسطو نبت فى جو البيان والجدل السفسطائى ، وكان ذا صلة بالنحو اليونانى ، بل والعربى . ولأمر ما تطلق كلمة « لوجوس » اليونانية على العقل واللغة على السواء . وقد درج المناطقة منذ أرسطو على أن يعتبروا دراسة الألفاظ والقضايا مقدمة ضرورية لدراسة البرهنة والاستدلال . ولم يقنع المناطقة المحدثون بهذا ، بل شاءوا أن يحصروا المعانى كلها ، ويجمعوا «ألف وباء» الفكر الإنسانى ، ويضعوا لكل معنى رمزاً خاصاً به ، وبذا تتكون اللغة العلمية العالمية

قال بذلك « ليبنتز » ، فتنبأ بالمنطق الرياضى ، وسبق عصره بنحو قرنين ، وأثار لأول مرة فكرة اللغة العالمية . ولا غرابة فقد كانت اللاتينية لغة العلم والعلماء لعهده . هذا إلى أنه كان عالى النزعة إن فى العلم أو فى السياسة . وفى هذه اللغة المنشودة ما يقرب المسافة بين بنى الإنسان ، ويحول دون أخطاء كثيرة ؛ لأن الخطأ فى الحكم والاستدلال كثيرا ما ينشأ عن خلاف لفظى أو غموض فى التعبير ؛ ويوم يتوفر لكل معنى رمز خاص به نستطيع أن نقول : لنحسب ، بدل أن نقول : لنبرهن

وقد عادت فكرة اللغة العالمية إلى الظهور مرة أخرى قوية متحفزة فى أول هذا القرن ؛ وكان من أكبر مناصريها رياضى وفيلسوف فرنسى بارع انتزع فجأة فى الحرب الكبرى الأولى ، وهو « كونورا » الذى كان يرى إلى تهذيب الاسبرنتو وتكوين «الإيدو» ، تلك اللغة الدولية التى تفرض نفسها على جميع العقول وجميع الشعوب . وقد وضع فى ذلك معجما خاصا ، أخذ عنه كثيرا الأستاذ لالاند فى معجمه الفلسفى المشهور

والرياضة أقل العلوم حاجة إلى الألفاظ والتراكيب ، لأنها أبعدها مدى فى العموم والتجريد . فلذا ما حصرت حقائقها ، واختير لكل حقيقة رمز معين أمكن تكوين لغة رياضية كاملة . وعلى غرار هذه اللغة الرياضية يمكن وضع اللغة العالمية . وقد كان كونورا فوق تخصصه فى المنطق والرياضة ملما بأطراف الدراسات اللغوية المقارنة ، فأخذ يبحث عن أصول عامة يمكن أن تتخذ أساسا للغة الدولية ، وحاول فعلا أن يكون هذه اللغة ويعد لها نحوها الخاص

ولم تلبث محاولته هذه أن تثير ثائرة علماء الاجتماع الفرنسيين ، وعلى رأسهم دركايم . فلم يرتضوا ذلك المنطق الإنسانى الذى يقود إلى لغة عالية ، وقرروا أن هناك أسرا لغوية بقدر ما هناك من مجتمعات إنسانية . وسواء أصحت الأسس التى بنى عليها كونورا مقترحه أم لم تصح ، فإن فكرة اللغة الدولية قد ازدادت فى ربع القرن الأخير قوة ووضوحا . واعمل فى سرعة الاتصال العالمى اليوم ما ييسر سبلها . ويتيح لها الفرصة لتخرج من دائرة الرغبة والأمل إلى عالم الحقيقة والوجود

فى هذا العرض السريع مايلقى بعض الضوء على عملنا المجمعى ومنه نستخلص دروسا نافعة . وفى مقدمتها أن الأصل فى المصطلح العلمى أن يؤدى بلفظ واحد ، كى يتوفر لكل معنى رمزه اللغوى الخاص به . فلنتحاش إذن الدوال المتعددة للمدلول الواحد منعا لتكرار لا داعى إليه ، وربما أدى إلى شىء من اللبس . والمصطلح المجمع عليه وإن لم يؤد المعنى المراد تماما سينتهى بأن يستقر ويستحضر مدلوله كلما ذكر

ونحن أحرص ما نكون على أن نؤدى المعنى العلمى الجديد بلفظ عربى ، فإن تعذر ذلك فلا ضير فى التعريب ، لاسيما إذا كانت الكلمة المعربة ذات صبغة عالية ، وهذا هو المنحى العلمى فى مختلف اللغات . ومن ذا الذى يذكر مذهب ليبنتز مثلا ولا يذكر معه كلمة مناد (Monade) ؟ إنا نراها فى اللغات الأوربية على اختلافها دون تغيير أو تبديل

وما يقال عن الألفاظ يمكن أن يقال عن الأساليب . فإذا كانت المعانى المفردة تجدد فإن المعانى المركبة التى تعتمد على الرابطة والاسناد تتجدد أيضا . وإذا كنا نحس بحاجة إلى ألفاظ جديدة ، فأنا فى حاجة أيضا إلى أساليب جديدة . وقد تصادف هذه الأساليب من الرفض والمعارضة ما تصادفه الألفاظ المبتكرة ، فتستنكر حينا وترد حينا آخر . بيد أنا إذا كنا فى حل من ابتكار اللفظ فلا غضاضة علينا فى ابتكار الأسلوب ، مادام يلتقى مع الأوضاع العربية . والفكر ، فى خلقه وابتكاره ، فى حركته وتنوعه ، يتطلب دون انقطاع من الألفاظ والأساليب مايؤدى المعانى المختلفة والمتنوعة